

الأبعاد النفسية في اختيار الألفاظ النبوية

وتأثيرها على المتلقي

الطالب: عماري مالك

جامعة تيارت - الجزائر

تعتبر عملية الاختيار من أبرز المباحث التي اعتمدها الأسلوبية الحديثة، والتي اعتبرتها عملية مساعدة على كشف تفرد كاتب أو خطيب على غيره من الكتاب أو الخطباء، بل منهم من ذهب إلى أن جعل الاختيار هو الأسلوب أو من دواعي قوة الأسلوب. فليس من الصعب أن تتكلم أو تكتب، لكن من الصعب أن تختار ما تكتب أو ما تقول وأن يكون هذا الاختيار يفضي بك وبسامعك إلى المعنى الصائب المؤثر. والظاهر أن أقوى عملية تخير الألفاظ بعد كلام الله - عز وجل - كلام رسوله - صلى الله عليه وسلم - فقد كان الاختيار الشافي الهادي، والسهل من الألفاظ القريب البادي. وقد استطعنا من منظورنا تقديم جانب من بلاغته تمثلت في تخير اللفظ من حيث الجرس الموسيقي وتأدية المعنى، ومن حيث التناسب والمعنى، ومن حيث التناسب وحقائق المعنى، وأخيرا تخير اللفظ من حيث الصفات النفسية الحاصل من مجموعها هذا الاختيار ولم اقتصر في هذا كله على الجانب التنظيري بل تجاوزته إلى الجانب الإجرائي التطبيقي في كثير من أحيانه، بغية إيضاح وتبيين جمالية بلاغته - صلى الله عليه وسلم - من خلال الأبعاد النفسية لعملية اختيار الألفاظ .

بلغت عناية العرب بلغتهم ذروة التوسع والجمال، فكانت بحق اللغة الأرقى من بين اللغات؛ محكمة الفصول، سهلة الحصول، حتى أنك لا تجد فيها عروة مفصولة ولا كلمة مفصولة وإن العرب وإن بلغ من كلامهم ما بلغ من فصاحة وبلاغة وحسن بيان وبراعة، فلا يسلم أن يعتريه الزلل والاضطراب والعيب والنقص والاختلاط. في حين نجد كلام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لا يدانيه كلام بشر، ولا تقاربه بلاغة بليغ. فقد كان - صلى الله عليه وسلم - رأس الفصاحة

الأبعاد النفسية في اختيار الألفاظ النبوية

والبيان، وطلب غاية البلاغة والتبيان⁽¹⁾؛ جاء بأسلوب ترق له النفوس، وتطرب له الأفتدة والأسماع والقلوب، بعيد عن الصنعة والكلفة، قريب إلى اليسر والسهولة، بحيث لا يجد الناظر المتفحص في كلامه، بدا للسقط وللإسترسال والإستكراه وحاشاه -صلى الله عليه وسلم- وفي معرض هذا يقول الجاحظ: "وهو الكلام الذي قل عدد حروفه، وكثر عدد معانيه، وجل عن الصنعة، ونزه عن التكلف..."⁽²⁾، كيف وهو القائل: "أنا أفصح من نطق بالضاد بيد أي من قريش، واسترضعت في بني سعد"⁽³⁾ والقائل: "بعثت بجوامع الكلم"⁽⁴⁾، وجوامع الكلم: الكلام القليل ذو المعنى الكثير وقد تصيّدنا جانباً من جوانب بلاغته وفصاحته -صلى الله عليه وسلم- المتمثلة في دقة اختيار اللفظة حال خطبه ووعظه وإرشاده وتأثيرها على نفسية المتلقي، سواء من حيث الجرس الموسيقي، أو من حيث الارتباط والتناسب بين اللفظ والمعنى، أو الارتباط بين اللفظ وحقائق المعنى، أو الصفات النفسية الحاصل من مجموعها اختيار تلك الألفاظ وهذه الدقة في الاختيار هي بمثابة جسر عبور من الألفاظ إلى الأرواح ومعانيها، ومن النفوس إلى الأجساد وحقائقها، إشباعاً للنفس وفكاً لتقيدها بالبدن حتى تسمو بالأفتدة والألباب في أعلى عليين.

1- دقة اختيار اللفظة من حيث النغم الموسيقي : ارتبطت الأساليب البلاغية بالنفس ارتباطاً وثيقاً لا يكاد ينفك، والبلاغة بما تحويه من معان وإيحاءات قد ربطها البلاغيون بجرس اللفظة - الموسيقى- التي ترجع إلى تأليف الأصوات وتعالقها، مما يمكن لتلك الأصوات أن تزرع الإثارة والانتباه في نفس المتلقي عن طريق حاسة السمع، وهذا ما لمسناه في تضاعيف مؤلفات النقاد والبلاغيين القدامى والمحدثين، يقول ابن طباطبا: "إن كل حاسة من حواس البدن إنما تتقبل ما يتصل بها مما طبعت له إذا كان وروده عليها وروداً لطيفاً باعتدال لا جور فيه... والأذن تتشوف للصوت الخفيف الساكن وتتأذى بالجهر الهائل"⁽⁵⁾، ويعتبر ابن رشيق أن: "الألفاظ في الأسماع كالصور في الأبصار"⁽⁶⁾، وعلى نحو ذلك يقول أبو هلال العسكري: "والنفس تقبل اللطيف، وتنبو عن الغليظ، وتقلق من الجاسي البشع، وجميع جوارح البدن وحواسه تسكن إلى ما يوافقها،

وتنفر عما يضاده ويخالفه... والسمع يتشوف للصواب الرائع وينزوي من الجهير الهائل" (7)، ويقرر (فنجشيتين) "أن الاستخدامات اللغوية حسبها أن تكون رموزا أو وسائط تشير إلى تلك الحالات النفسية" (8)

قد تمثل هذا في نهيه -صلى الله عليه وسلم- أن يقال: "خبث نفسي، ولكن ليقل: لقت نفسي" (9) ومعناها واحد: أي غثت نفسي وساء خلقها. "ولكنها في اللفظ تخالفها، فهي أهون منها وأيسر" (10)، فناهيك عن كراهة اللفظ من جهة المعنى، نرى نوع من تصوير الألفاظ بجرسها، فاجتماع السين في (لقت نفسي) يضيف لدى المتلقي جوا من الوسوسة وعدم الثقة فيه، وهذا ما يناسب حال القائل (خبث نفسي)، كما نرى التقابل بين الكلمتين (لقت نفسي) طلبا للتوازن. ولهذا نجد ابن الأثير في تعليقه على قوله -صلى الله عليه وسلم-: "ارجعن مأزورات غير مؤجورات". يقول: "وإنما أراد موزورات - من الوزر- فقال: - مأزورات مكان مأجورات- طلبا للتوازن والسجع" (11). وهذا مذهب البلاغيين في اعتبار الإيقاع الصوتي المتوازن عنصرا هاما من عناصر التأثير في الخطاب اللغوي، لأن النفس بطبيعتها كما يرون تميل إليه. ففصاحة الألفاظ متوقفة على البعد النفسي، وظهور دلالتها متوقف على ألفتها واستثناس المتلقي بها؛ وهذه تعتبر ظاهرة من الظواهر الفطرية التي تتفاعل بتفاعل النفس مع الإيقاع الداخلي للفظ المفردة استحسانا أو استهجانا عن طريق حاسة السمع التي تزودنا بالإدراك الخارجي، وهذا ما بيته الدراسات النفسية "أن الإنسان يميل إلى عدم الأشياء التي تقلقه وتزعجه، والأمور التي تتعارض مع رغباته وأهوائه". (12)

ونستشف ذلك أيضا في قوله -صلى الله عليه وسلم-: "كحامل المسك ونافخ الكير" (13) من حيث التوازي الصري بين اسم الفاعل (حامل، نافخ) الذي يرتفع من خلال الموسيقى الداخلية لتجلية الصورة الفنية. وأيضا مجيء صيغة (التفاعل) في قوله -صلى الله عليه وسلم-: "توادهم وتراحمهم وتعاطفهم". الدالة على المشاركة والتلاحم، فلو قيل: (مثل المؤمنين في ودهم ورحمتهم وعطفهم) لما أدت المعنى الإضافي ذاته، ولما أحست النفس بذلك الإيقاع نفسه.

الأبعاد النفسية في اختيار الألفاظ النبوية

إن الجرس اللفظي يوحى في نفس المتلقي تخييل صور ذهنية تناسب إيقاعه، وتشيع في نفسه جوا نفسيا معيناً باعتبار النفس تابعة للهوى، والهوى تواق وميال لما هو أجمل "كذلك النفس لما كانت حال تعلقها بالبدن يكثر عليها اتباع هواها صار لفظ (النفس) يعبر به نفس المتبعة هواها أو عن اتباعها الهوى" (14). ومن خلال النماذج التي رأيناها نستشف مدى عناية الرسول -صلى الله عليه وسلم- بعملية التوصيل للمتلقي عن طريق الجرس الموسيقي للفظ المفردة، والمتواليات الإيقاعية، التي بدورها ساهمت في سمو الفكرة والتأثير على نفسية المتلقي.

2 - اختيار اللفظ من حيث التناسب وحقائق المعنى:

كما وضحنا من قبل فإن اختيار الألفاظ النبوية تمثل في الجانب المتعلق بالجرس الموسيقي للفظ ومدى تأثيرها على نفسية المتلقي. أما الشق الآخر نجده تمثل في التناسب والارتباط بين الألفاظ وحقائق المعنى. وفي معرض هذا يقول ابن القيم -رحمه الله-: "ولما كانت الأسماء قوالب للمعاني ودالة عليها، اقتضت الحكمة أن يكون بينها وبينها ارتباط وتناسب... بل للأسماء تأثير في المسميات تأثر عن أسمائها في الحسن والقبح، والخفة والثقل، واللطافة والكثافة" (15). ولما كان بين الأسماء ومسمياتها من الارتباط والتناسب والقرب ما بين قوالب الأشياء وحقائقها، وما بين الأرواح والأجسام، عبر العقل من كل منهما إلى الآخر كما كان إياس بن معاوية وغيره يرى الشخص فيقول: ينبغي أن يكون اسمه كيت وكيت، فلا يكاد يخطئ. (16) وقوله -صلى الله عليه وسلم- للنابغة الجعدي لما أنشده:

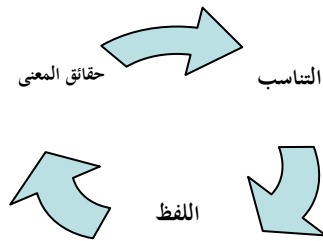
وَلَا خَيْرَ فِي جَهْلٍ، إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ حَلِيمٌ إِذَا مَا أورد الأمر أصدرًا

وَلَا خَيْرَ فِي حَلْمٍ، إِذَا لَمْ تَكُنْ لَهُ بَوَادِرُهُ تَحْمِي صَفْوَهُ أَنْ يَكْدُرًا

فقال -صلى الله عليه وسلم-: "أجدت، لا يفضض الله فاك. قال الراوي: فنظرت إليه، فكأن فاه البرد المنهل، ما سقطت له سن ولا انفلتت، ترف غروبه" (17)، وإن كان هذا من بركته -صلى الله عليه وسلم- إلا أننا نجد أن هناك ارتباط بين اللفظة وحقائق المعنى التي بينها الراوي من

خلال كلامه المدرج في الحديث النبوي . فقد استطاع اللفظ أن يصل إلى حقيقة الشيء، ويتجاوز الأعراض ليصل إلى المحسوسات ويؤثر فيها، فالنفس تتأثر بالجميل من الأشياء وتتفاعل معه، وهذا التفاعل ينعكس بالإيجاب على المتلقي، فيظهر إما فيزيولوجيا أو من خلال سلوكياته وتصرفاته. وثبت عنه - صلى الله عليه وسلم - أنه غير اسم عاصية وقال: "أنت جميلة"⁽¹⁸⁾، وغير اسم بره باسم جويرية⁽¹⁹⁾. والناظر المتفحص لحديث النبي -صلى الله عليه وسلم- يجد أنه في تغييره للاسمين راع حقيقة المعنى، فالمرأة المسلمة يناسبها اطلاق اسم جميلة عليها بدل عاصية، لأن الاسلام يزين ويحلم ويهدب، ويلبس المرء حلة النظارة والنقاوة، وحقيقة هذا المعنى لا يناسبه اسم عاصية. كما أن للأسماء تأثير على مسمياتها فلفظ (عاصية) قد يؤثر في صاحبه ويجره إلى العصيان. أما اسم بره فيعني الترابرة؛ أي السمن والبضاضة، والترة: الجارية الحسناء الرعناء⁽²⁰⁾، وهذا نقيض حقيقة الشيء كما أشرنا من قبل. ولما قدم المدينة واسمها يثرب غيره إلى طيبة. فاستحقت هذا الاسم، وازدادت به طيبا إلى طيبها⁽²¹⁾، وواضح من كلامه -صلى الله عليه وسلم- أنه اهتم باستبدال الألفاظ القبيحة بألفاظ حسنة، لما يرى فيها من التأثير على حقائقها، ولحرصه -صلى الله عليه وسلم- على أمته وإيراد الخير لهم، اختار لهم أحسن الألفاظ، ودقق فيها، وأعطى لكل شيء ما يستحقه فكانت ألفاظه بذلك أرقى المنظومات لأعظم وأحن ناطق.

كما أنه نهى -صلى الله عليه وسلم- عن تسمية العنب كرما فقال: "الكرم الرجل المسلم"⁽²²⁾. لأن هذه اللفظة تدل على كثرة الخير والمنافع في المسمى، وشجرة العنب غالب الظن فيها مستخرجا للخمر، ولذلك كان المستحق لها الرجل المسلم ولا تكون إلا له.⁽²³⁾ وفي النهاية تمثل ما ذكرناه في هذا الشكل البياني:



3 - اختيار اللفظ من حيث التناسب والمعنى :

رأينا فيما سبق أن اختيار الألفاظ أخذ شقين، ما تعلق بجانب النغم الموسيقي، والثاني ما تعلق بتناسب اللفظ وحقائق المعنى. ونمر الآن إلى وجه آخر تمثل في عملية اختيار اللفظ من حيث التناسب والمعنى، ونلمسه كثيرا في أنماط كلامه -صلى الله عليه وسلم- على تنوعها، نبدأها ببراعة الاستهلال الذي نجده يعطي بعدا نفسيا ويساهم في إنجاح العملية التواصلية، كما أنه لا يخلو من معايشة التجربة الشعورية لدى المتلقي.

ونستشف ذلك في تصدير الأحاديث الشريفة بكلمة (مثل)، منها قوله -صلى الله عليه وسلم: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى"²⁴. و(مثل) تحيىء بمعنى الحال والصفة، والجمع بينهما يدل على تشبيه الهيئات والأحوال. وهذا التصدير بدوره يمهد النفوس ويهيئها لتقبل التجربة الشعورية، بما تضمنته هاته اللفظة من إثارة انفعالية تشويقية تبرز القيم العليا في التعليم والاعتبار.

وإضافة كلمة (مثل) للمؤمنين وعطف (الواقع) -التواد والتراحم والتعاطف- يجعل المثال مزدوجا، والصورة متعددة، ويعطي للصورة أبعادا متشابكة كالتشابك واللحمة التي يريد -صلى الله عليه وسلم- ترسيخها في النفوس من خلال النماذج المستقاة من المجتمع. وانظر إلى التناسب بين لفظة (السهر) التي تفيد التجاوب الشعوري بين الأعضاء، وبين (الحمى) التي تجسد ذلك التجاوب بشكل فعلي. وهذا الاختيار الدقيق يعكس حرص النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يكون الفرد المسلم حريصا على الشعور بالآخرين، ويعمل على تجسيد هذا الحرص في الواقع لغاية سامية تتمثل في توحيد الأمة.

وقوله -صلى الله عليه وسلم- : "من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عليه كربة من كرب الآخرة"²⁵. فالتنفس هو التفريح، والمساعدة، ورفع الغبن. لكن لربيات -صلى الله عليه وسلم- بهاته الألفاظ ولا غيرها لأنها لا تفي بالعرض نفسه، ولا تبرز المعنى كما هو.

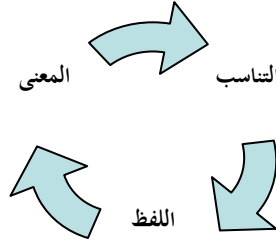
فنفس من التنفيس والنفس هو الهواء الخفيف، ويطلق على النسيم الخارج من الصدر والداخل فيه. "ولما كان حبس النسيم في الصدر يحدث ضيق الاختناق وهو من الكرب... بعد أن احترق الاكسجين الذي فيه، وارتفعت فيه نسبة ثاني أكسيد الكربون"⁽²⁶⁾. جاء النبي -صلى الله عليه وسلم- باللفظ المناسب (نفس) لمعنى التنفيس "وهو إعطاء نفس نظيف، فينشر صدره، ويمتص حاجته من الأكسجين الذي فيه"⁽²⁷⁾ وقد جاء النبي -صلى الله عليه وسلم- بلفظ التنفيس وهو الأدق والمناسب للغرض المراد، فلبس المعنى واحتواه وخرجه على استواء.

وفي قوله -صلى الله عليه وسلم-: "الآن حمي الوطيس"⁽²⁸⁾، ومعنى لفظ (الوطيس)؛ التنور مجتمع النار والوقود، فاختيار هذا اللفظ بالذات يختزل كل ما يقال في صفة المعركة، وما يدور في رحاها وكأنها هي تمثل لك دماء نارية دموية؛ يقابلها أن المحاربين في القتال يأكل بعضهم بعضاً، كما تأكل النار الوقود، ولفظة (الوطيس) نار مشبوبة من البلاغة تأكل الكلام أكلاً. ولو أدير لسان العرب لما وجدت لفظة مماثلة تصور لك الواقع تصويراً كلياً، وتستحضر لك المشاهد استحضاراً أنياً، وتمتعك امتاعاً فنياً، فانظر هل لك أن تجد في غيره من الكلام ما يثلج صدرك ويروي غليلك؟! وقوله -صلى الله عليه وسلم-: "مات حتف أنفه" وهذا الاختيار للفظ (أنفة) نجد لها عدة تحريجات كلها تصب في أن الاختيار يتناسب والمعنى، بل تجده يحيط به إحاطة شاملة. فقوله: (مات حتف أنفه)؛ أي هلك على فراشه، وهذه اللفظة تحمل معنى أن الرجل الذي يموت في فراشه دون قتال، تتناقله الألسنة وتؤرخ موته، وهذا ما يأنفه العرب، فكأن الرجل في هاته الحالة قد ماتت أنفته وكبرياؤه⁽²⁹⁾.

وقد يحمل على معنى أن العرب عرفوا بالكبر وعزة النفس كما أشرنا، ولا شك أن الكبر قد ولّد الكثير من المشاحنات والاقত্তال والانتقام والفوضى في الجاهلية، وعليه فقد اختار -صلى الله عليه وسلم- لفظة (أنفة)، الدالة على الكبر لتناسبها والمعنى المراد التنبيه عنه، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- أراد القول: أنه من كان متكبراً متجبراً، فإن ماله الهلاك؛ أي أوصيكم بالتواضع فإن الكبر مقتلة.

الأبعاد النفسية في اختيار الألفاظ النبوية

وقوله: "إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة"⁽³⁰⁾، غين من الغنة: أن يشرب الحرف صوت الخيشوم. وروضة غناء: تمر الريح فيها غير صافية الصوت، من كثافة عشبها والتفافه⁽³¹⁾. وغين على قلبه غينا: تعشته الشهوة، أو غطي عليه وألبس، أو غشي عليه، أو أحاط به الرين⁽³²⁾، ولفظة (يغان) تناسب المعنى المراد، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- يصف حالة تعرض قلبه للشهوات بهذا اللفظ الدقيق (يغان)، الذي يدل على تعرض الأشياء إلى أمر عارض سطحي، أو مجرد شهوة عابرة لا تكاد تؤثر أو تستقر فيه. ولم يقل: (تعشنتني أو غطنتني) لأن الغشاوة والغطاء هو الإطباق على الشيء والإحاطة به بحيث تتمكن الشهوة منه، وهذا لا يتناسب مع شخصه -صلى الله عليه وسلم- باعتباره نبي رسول معصوم من عند الله -عز وجل- وما رأينا يتمثل في الشكل البياني الآتي:



4 - الصفات النفسية الحاصل من مجموعها اختيار الألفاظ :

إن كان ما سبق وذكرناه متميزاً، فإن ذلك يرجع إلى نفسيته -صلى الله عليه وسلم- المليئة بالطهر والإيمان، كثيرة الحمد والشكران. كما نجدتها امتازت بالطيب، وحسن الخلق والعفو والسميح والخير "ولما كان عقله -عليه الصلاة والسلام- أوسع العقول لا جرم اتسعت نفسه الكريمة اتساعاً لا يضيق عنه شيء. كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- خلقه القرآن"⁽³³⁾. ومن كانت نفسه كذلك تأبى إلا أن تتخير أحسن الألفاظ وأجملها وألطفها وأدفاها، وأقربها إلى النفس البشرية، وأبعدها عن ألفاظ الفحش والتفحش. وهذا أنه -صلى الله عليه وسلم- لم يكن فاحشاً ولا

متفحشا. ونهى عن الفحش ومقته فقال: "ما كان الفحش في شيء إلا شأنه، وما كان الحياء في شيء إلا زانه"⁽³⁴⁾

وهذه النفس الشريفة جاءت بالألفاظ من ورائها لا من وراء اللسان "فجعل من نظمه طريقة نفسية في الطريقة اللسانية"⁽³⁵⁾، وقلبت المعاني كيف شاءت حتى أنك تجدها -المعاني النبوية- في ألفاظ تقصر بحقيقته النفسية في نظمها وسبكها؛ فهي ألفاظ لمعانيها، لا معاني جلبت لألفاظ كما جاء في كلام عامة البلغاء.

كما تتضح صفة كمال نفسه من خلال وصف هند بنت أبي خولة لما سألتها حفيده وريحانته الحسن -رضي الله عنه- عن حليته -عليه السلام- فوصفت له النبي -صلى الله عليه وسلم- بصفات خلقية إلى أن قالت: (... كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- متواصل الأحزان، دائم الفكرة، ليست له راحة، ولا يتكلم من غير حاجة، طويل السكوت"⁽³⁶⁾). وهاته الصفات المتكاملة كلها تشحن اللفظ فتخرجه في أكمل معنى وأطفه، وتصل به إلى القلب في أبهى حلة وأنعمه.

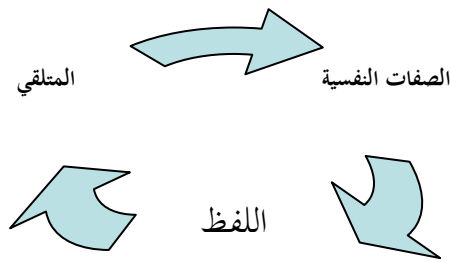
وإذا تأملنا إلى تلك الملفوظات اللسانية المتصدرة لكلامه -صلى الله عليه وسلم- نجدها أعراضا سطحية تخفي أو تعكس الحركة النفسية النابعة عن الصفات الخلقية التي أدبه ربه عليها -عز وجل- فأحسن تأديبه. كما أننا نجد ألفاظه جاءت مهذبة تنطق عن نفس مهذبة، وتشع رونقا وجمالا وحسنا وانسيابا في النفوس كانسياب محبته -صلى الله عليه وسلم- في الأفتدة والقلوب والنفوس، ولازمته في مسيرته الدعوية فبلغ بأفصح الألفاظ وأتمها، وألطف العبارة وأهونها، وأجمل الصور وأمهلها. فأنتم تبليغه حتى توفاه الله -تبارك وتعالى-، ومن هنا نعتبر اختيارات ألفاظه -صلى الله عليه وسلم- قد ارتبطت بالجانب النفسي الروحي له -صلى الله عليه وسلم- بمقابل ما أحدثته من أبعاد تأثيرية إيجابية في نفسية المتلقي.

وقد اطردت الأمثلة كثيرا في هذا المقام ومما يوضح ذلك قوله -صلى الله عليه وسلم- لسائق الإبل حينما كان يحدو وعليها نساؤه: "رفقا بالقوارير"⁽³⁷⁾، فحرصه على المرأة والحفاظ عليها وحماتها حتى من نفسها جعله ينبه -صلى الله عليه وسلم- المنشد على عدم إسماهن صوته، فوصف

الأبعاد النفسية في اختيار الألفاظ النبوية

النساء بهذا اللفظ الدافئ والرقيق (القوارير) الملائم لنفسيته الهادئة المتصفة بالرفق، كما أنها تناسب الموصوفات (النساء) أمهن ضعاف العزائم وقليلات الدوام على العهد فتأمل هذا الوصف البديع الذي ينبع عن صفاء تلك النفس الطاهرة، وتأمل أيضا إلى ما يحمله هذا اللفظ من معاني اختزلت في هذا الاختيار الدقيق الباهر.

وحديثه لامرأة رفاعة لما شكت إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - زوجها عبد الرحمن بن الزبير. فقال لها: "أتريدين أن تراجع رفاعة، لا، حتى تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك"⁽³⁸⁾، فالحديث يظهر أن النبي - صلى الله عليه وسلم - لم يأت بلفظ صريح في حديثه مع زوجة رفاعة، بل تجاوزه إلى الكناية بلفظ (عسيلته - عسيلتك)، فلم يقل: (حتى تجامعيه ويجامعك)، لأن نفسه الحية الطاهرة تأبى إلا الألفاظ المهذبة التي لا تكسر حاجز الحياء، ولا تعكر صفو الأدب، ولا تنفر المخاطب عن الاستماع والاستيعاب، فيكون الكلام معدم الأثر في النفوس، والاستمالة للقلوب. إذا فاعامل النفس له الأثر في تغلغل تلك المعاني وانسيابها في نفسية المتلقي، وهذا ما يتجلى حقيقة في واقعنا وقد أدركناه بلا استثناء عندما نستمع لبعض الخطب من أناس هي نفسها تكرر عند آخرين لكن الفارق أن وقع تلك الخطب ليس كأخرياتها، فيعلم الجميع أن السر راجع إلا نفسية الخطيب، وعندما أقول نفسية الخطيب فلا أقصد هنا تأثيره بالمقام أو المقتضى، بل المراد الصدق وعلو النفس وشفافيتها بالطبع. مع عدم نفي العوامل الأخرى التي ذكرناها. لذا يمكننا تمثل ما سبق وتحدثنا عنه في الشكل البياني الآتي:



إن تلك النماذج المتنوعة المتمثلة في بلاغة اختياره - صلى الله عليه وسلم - للألفاظ من حيث النغم الموسيقي أو تناسب اللفظ والمعنى أو تناسب اللفظ وحقائق المعنى أو الصفات الحاصل من مجموعها اختيار الألفاظ. نجد في حقيقة الأمر أننا أمام إعجاز بياني فاق قدرة البلغاء من مشابته، وتجاوز الفصحاء عن مماثلته، وأذهل المتلقين من مماثلته. ومهما قلنا وكتبنا فلن نوفي الوصف حقه، ولن نكشف عن مطعمه، ولن نصل إلى مكمنه، حسبنا في ذلك بيان بعض أوجه التفرد في بلاغته - صلى الله عليه وسلم - من حيث اختيار الألفاظ، وتلك الأبعاد النفسية التي هي حلقة الوصل بين المخاطب والمخاطب.

مراجع البحث وإحالاته

- 1 - أي: أن البلاغة تطلب غايتها في الكمال منه .
- 2 البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تح: عبد السلام هارون، مكتبة خانجي، القاهرة، ط7، 1998م، مج: 2، ص: 16-17 .
- 3 بيد: (ويقال: ميد بالميم، وهو اسم ملازم للإضافة إلى (أن) وصلتها، وله معنيان: "غير" و"من أجل" . قال البغدادي في "خريج أحاديث شرح الكافية": وقال السيوطي في "اللآلئ المنتثرة في الأحاديث المشتهرة عن الحفاظ ابن كثير" أن هذا الحديث لا أصل له. ونبه عليه صاحب "المواهب اللدنية" ثم قال: معناه صحيح. قال ابن الجزري في "النشر" مج: 1، ص: 220. (والحديث المشهور على الألسنة: لأصل له، ولا يصح). نقلا عن: السير الحديث إلى الاستشهاد بالحديث في النحو العربي، محمود فجال، (د، ط)، (د، تا)، ج 1، ص: 242.
- 4 رواه مسلم عن أبي هريرة -رضي الله عنه- رقم: [523] .
- 5 عيار الشعر، محمد بن أحمد ابن طباطبا العلوي، تح: طه الحاجري ومحمد زغلول سلام، (د، ط)، 1956 م، ص: 40
- 6 العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجليل، بيروت، 1972م، ج: 1، ص: 128 .
- 7 الصنائع، الحسن بن عبد الله بن سهل أبو هلال العسكري، تح: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، عيسى بابي الحلبي وشركاه، القاهرة، 1971 م، ص: 63 .
- 8 البلاغة العربية في ضوء الأسلوبية ونظرية السياق، محمد بركات أبو علي، دار وائل للنشر، ط1، 2003م، ص: 37.

- 9 عن عائشة رضي الله عنها- قالت: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " لا يقولن أحدكم: خبثت نفسي، ولكن ليقل: لقسست نفسي ". رواه مسلم، رقم: [2250].
- 10 شرح رياض الصالحين (من كلام سيد المرسلين)، أبي زكريا محي الدين يحيى بن شرف النووي، شرح وتعليق: محمد بن صالح العثيمين وعبد العزيز بن عبد الله بن باز، دار بن الجوزي، القاهرة، ج: 4، ص: 305 .
- 11 الأسس النفسية في أساليب البلاغة العربية، مجيد عبد الحميد ناجي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ط 1، 1984 م، ص: 62 .
- 12 القرآن وعلم النفس، محمد عثمان نجاتي، دار الشروق، القاهرة - مصر، ط 7، 2001 م، ص: 134 .
- 13 رواه مسلم عن أبي موسى، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: "إنما مثل المجلس الصالح والمجلس السوء كحامل المسك ونافخ الكبر" رقم: [2628].
- 14 مجموع الفتاوى، أبو العباس ابن تيمية، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، ط 1997، 1 م، تح: عامر الجزائر وأنور الباز، ج: 9، ص: 156-157 .
- 15 زاد المعاد في هدي خير العباد، شمس الدين أبي عبد الله بن أبي بكر الزرعي الدمشقي (ابن قيم الجوزية)، كندة للإعلام والنشر، جدة، ج: 1، ص: 523 .
- 16 ينظر، المصدر نفسه، ج: 1، ص: 524 .
- 17 - انقلت أي لا انتملت له سن، ترف غروبه أي تبرق ثناياه، دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تح: محمود شاكر، دار المدني بجده، ط 3، 1992 م، ص: 22 .
- 18 رواه مسلم، رقم: [2139].
- 19 رواه مسلم، رقم: [2540].
- 20 ينظر: لسان العرب، ابن منظور، دار صابرة للطباعة والنشر، بيروت، (د، ط)، 1965 م مج 1، مادة (بره)، ص: 270، مادة (ترر)، ص: 427 .
- 21 زاد المعاد، ابن القيم الجوزية، ج 1، ص: 523، 524 .
- 22 رواه مسلم من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - بلفظ: " لا تسموا العنب الكرم، فإن الكرم الرجل المسلم " رقم: [2247].
- 23 ينظر، شرح رياض الصالحين، النووي، ص: 305 .
- 24 رواه مسلم عن النعمان بن بشير - رضي الله عنه - رقم: [2586]
- . 162 .

- 25 رواه مسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - رقم: [2699] .
- 26 روائع من أقوال الرسول - صلى الله عليه وسلم - "دراسات لغوية وفكرية وأدبية"، عبد الرحمان حسن حنبيكه الميداني، دار القلم، دمشق، ط6، 1995 م، ص: 283، 284 .
- 27 المصدر نفسه، ص: 283 .
- 28 قطعة من حديث أخرجه مسلم في "صحيحه" رقم: [1775].
- 29 ينظر، المصدر نفسه، ص: 328 .
- 30 رواه مسلم عن الأغر المزني - رضي الله عنه - رقم: [2702].
- 31 لسان العرب، ابن منظور، مادة [غين]، ص: 3308 .
- 32 القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادي الشيرازي، تح: مكتبة تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، إشراف: محمد نعيم العرقسوسي، ط8، 2005 م، مادة [غين]، ص: 1220 .
- 33 وسائل الوصول إلى شمائل الرسول، الشيخ يوسف بن اسماعيل النبهاني، بيروت، 1309 هـ، طبع بموافقة وزارة الشؤون الدينية تحت رقم 82 / 885، طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة الرعاية، الجزائر، 1989، ص: 114 .
- 34 أخرجه الترمذي، رقم: [1984] .
- 35 إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرفاعي، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، ط9، 1973 م، ص: 262 .
- 36 المصدر نفسه، ص: 290 .
- 37 رواه مسلم عن أنس - رضي الله عنه - رقم: [2323] .
- 38 رواه مسلم من حديث عائشة - رضي الله عنها - رقم: [1433] .